

ثقافة الشباب كثقافة فرعية:

تعتبر الثقافات الفرعية فئات فرعية من التشكيل الثقافي الأشمل، وبالرغم من أن الثقافات الفرعية تشارك الثقافة الأوسع بعض عناصرها، إلا أنها تتميز عنها، ويتمثل هذا التمايز في بعض السمات والعناصر الثقافية الخاصة التي تنطوي عليها الثقافات الفرعية والتي على أساسها يتحدد ما نطلق عليه اسم التباين الثقافي، وقد اقترح دوانز "Downses" التفرقة بين الثقافات الفرعية وفقاً لنوعية استجابتها للمطالب التي تفرضها البنى الاجتماعية والثقافية، فالثقافة المهنية مثلاً تمثل استجابة موجبة لهذه المطالب في حين الثقافات الفرعية المنحرفة تمثل استجابة سالبة لمثل هذه المطالب، وإذا كان بإمكاننا تصنيف هذه الثقافات الفرعية في ضوء متغيرات مثل: السن، الجيل، الطبقة... إلخ.

فإننا نستطيع الحديث عن "ثقافة الشباب" بوصفها ثقافة فرعية خاصة بفئة عمرية معينة وهي تنطوي على قيم ومعايير وأنماط سلوكية ومطامح ومثاليات، تشكل في مجملها إطاراً مرجعياً لسلوك هذه الفئة.

وثقافة الشباب في ضوء مفهوم الثقافة الفرعية إنما تنطوي على أشكال وصور بديلة للتعبير الثقافي بحيث تستطيع هذه البدائل أن تقدم حلولاً جمعية لبعض المشكلات التي يواجهها الشباب والخاصة بتوافقهم وتكيفهم مع المجتمع وباستطاعتنا أن نحلل ثقافة الشباب على مستويات متعددة، فمن الممكن تحليلها على المستوى التاريخي للأفكار، والمستوى الثاني هو مستوى القيم وموجهات السلوك والمستوى الثالث هو مستوى المعاني والرموز وعلاقتها بالفن وصور التعبير الأخرى، وأخيراً المستوى الرابع وهو مستوى العنصر الشخصي والدينامي الذي يتضمن سلوك الأفراد الذين يشتركون معاً في إطار مرجعي ثقافي واحد، وعموماً هناك متطلبات محددة لدراسة الثقافة الفرعية ضمن الضروري:

- 1- دراسة طبيعة الثقافة الفرعية وذلك من خلال التحليل التاريخي لتطور هذه الثقافة وصلتها بالمشكلات البنائية التي ينطوي عليها النسق الاجتماعي الأكبر.
 - 2- تحليل الاستجابات المجتمعية للثقافات الفرعية والتركيز هنا سينصب على استجابة النظام الأخلاقي والمعياري العام لهذه الثقافات وموقفه منها.
 - 3- دراسة التاريخ الأخلاقي للثقافات الفرعية أي المراحل المختلفة التي مر بها البناء المعياري والأخلاقي للثقافة الفرعية، ومبلغ توحد الأعضاء بكل مرحلة من هذه المراحل.
 - 4- تحليل النظام الاجتماعي للثقافة الفرعية ويتم ذلك على مستويين هما: العلاقة بين الثقافة الفرعية والبناء وأثرها على التفاعل الاجتماعي داخل هذه الثقافة الفرعية ومعنى ذلك أن علينا أن نفحص التنظيم الاجتماعي للقيم، والمعايير، والرموز، وأنماط السلوك.
 - 5- ندرس ضروب الاستمرار أو الاخفاق التي تبديها الثقافات الفرعية، ذلك أن هذه الثقافات ليست جامدة، وإنما تشهد تغييرات متعددة ترجع إلى حقيقة المشكلات التي تواجهها والعلاقات بين الثقافات الفرعية المختلفة، وليس من شك أن ثقافة الشباب تعكس ما يتعرض له الشباب في المجتمع المعاصر من تأثيرات للتغيرات المهنية، والاقتصادية والتعليمية، ويعيش الشباب هذه التغيرات لا كخبرات طبقية وإنما بوصفها خبرات وتجارب جيلية.
- تصنيف ثقافة الشباب:**

وضحت لنا الكثير من الدراسات السوسولوجية التي تمحورت حول الشباب، أنه يمكن أن نصنف الثقافات الشبابية إلى أربعة فئات هي:

- الفئة الأولى: هي فئة الشباب الممثل وهؤلاء هم الذين يرغبون في الابتعاد عن العناصر التي تنطوي عليها "ثقافة المراهقين" وتوصف بأنها منحرفة، وبالتالي فهم متمثلين لثقافة الكبار.

- الفئة الثانية: هي الشباب الجانح وهي تضم أولئك الذين يمارسون أنشطة غير قانونية كالسرقة، والعنف، والإدمان، والسلوك الجنسي الشاذ.

- الفئة الثالثة: وهي فئة الشباب المتمرد ثقافيا، وهم أولئك الذين يتوحدون ببعض الأفكار الثقافية والفنية، ولكنهم غالبا ما يأخذون من هذه التيارات والأفكار، جوانبها السطحية والشكلية، وينعكس ذلك في تصرفاتهم وسلوكهم ومظهرهم وهم غالبا ما ينتمون إلى الطبقة الوسطى.

- الفئة الرابعة: وهم ينتمون إلى الجماعات والحركات السياسية المكافحة، وهم شباب يتبنون أفكارًا ومبادئ سياسية تنتمي إلى التيار الراديكالي، ومن أمثلة ذلك الحركات الطلابية وبعض الجماعات الإيديولوجية.

ثقافة الشباب: مفهومها وطبيعتها:

أصبحت ثقافة الشباب تمثل في وقتنا الحاضر مفهوما رئيسيا عند أي مناقشة لقضايا الشباب أو اتجاهاتهم أو مشكلاتهم تمثل استجابة للتغيرات البنائية الكبرى التي يشهدها المجتمع المعاصر، والتي أدت إلى ظهور أزمات اجتماعية ثقافية كبرى، تتعلق أساسا بأساليب تكوين شخصية الشباب وتحديد محتوياتها واتجاهاتها العامة.

ويمكن اعتبار ثقافة الشباب إحدى الوسائل الرئيسية للتنشئة الاجتماعية، حين تجعل الشباب يكتسبون أدوارًا وأنماطًا سلوكية يتعذر اكتسابها من الهيئات المختلفة للتنشئة الاجتماعية وعلى الأخص الأسرة والمدرسة وكل ما يمكن أن يعد من وجهة نظر الشباب بمثابة مؤسسات (رسمية) للتنشئة الاجتماعية، وإذن فإن ثقافة الشباب التي تتطور داخل جماعات الصداقة غير الرسمية والتي تقوم أساسا على العلاقات الاجتماعية التلقائية والأولية هي بمثابة وسيلة غير رسمية تحظى بالقبول العام للتنشئة الذاتية للشباب.

وإذا كان علماء الاجتماع قد اهتموا بدراسة الاثر الذي تحدثه الجماعة الأولية في تكوين الذات الاجتماعية خلال مرحلة الطفولة، فإن الدراسات الحديثة قد كشفت على أن هذه الجماعات الأولية تنتشر في المجتمع في مجالات متنوعة وتحدث تأثيرا ملموسا في مواقف الفرد، واتجاهاته سواء في مجال العمل أو الدراسة أو قضايا وقت الفراغ، إن الشباب ينتمون إلى جماعات رفاق أولية تؤدي وظائف مختلفة ويتنوع بنائها بتنوع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية العامة والمرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع ولقد كان من أبرز نتائج هذا الانتماء لتلك الجماعات بروز مفهوم ثقافة الشباب واعتباره مدخلا رئيسيا لفهم اتجاهات الشباب ومواقفهم.

وعموما فإن المهتمين بدراسة وتحليل ثقافة الشباب وفحص النتائج التي ترتبت عليها، يرون أن تحولاً كفيلاً هائلاً قد شهدته المجتمع المعاصر في علاقته بالشباب نظراً لعدة اعتبارات أهمها ما يلي:

1- انتشار ثقافة الشباب بصورة لم تحدث من قبل على نحو جذب اهتمام ومشاركة الشباب بغض النظر عن الأصل الاجتماعي والجغرافي أو المستوى التعليمي والثقافي، وقد عملت هذه الثقافة على حدوث نوع من الانفصال بين الشباب والمراهقين من جهة وبين الشباب والكبار من جهة أخرى. وما تميزت به ثقافة الشباب هو اتجاهها الواضح نحو المعارضة وأصبحت في نظر المجتمع ثقافة مضادة تعبر عن تحدي سافر للقيم والمعايير السائدة.

2- عبرت ثقافة الشباب في كثير من المجتمعات بالإضافة إلى الحركات الطلابية عن نوع من الانهيار الثقافي في المجتمع المعاصر، وشجع على ذلك ما أحدثته التكنولوجيا المعاصرة من تفكك في النظم التقليدية التي بدت غير ملائمة للتوقعات والآمال والمطالب الجديدة، وهذا يشكل تهديداً قوياً لاستقرار الإطار الثقافي الذي كان يمنح الشباب إحساساً بالهدف وتمثلاً للمعنى وثقة بالمستقبل.

3- في المجتمعات النامية، كان ظهور حركات الشباب دليلاً قوياً على ضرورة إحداث تحولات اجتماعية جذرية فيها، فهي دليل على أن مرحلة النمو الاجتماعي يتعين تجاوزها وإحلال مرحلة أخرى محلها.

4- ثقافة الشباب هي ثورة تمثل عرضاً من أعراض الأزمة الاجتماعية والثقافية التي يشهدها المجتمع المعاصر وتتضمن هذه الأزمة صراعاً بين التغيرات التكنولوجية الهائلة والتي تحدث في المجتمع المعاصر والنظام الاجتماعي والنسق الثقافي القائم. فقد أوجدت الثورة التكنولوجية المتسارعة أدواراً اجتماعياً جديدة، وأوضاعاً طبقية مستحدثة وقيم ودوافع وحقوقاً وواجبات لم تكن قائمة من قبل، وقد كان طبيعياً في ضوء ذلك كله أن يعتبر الشباب الأزمة الثقافية المعاصرة بوصفها أزمة تتصل بكيانهم وهويتهم، أي بعدم قدرتهم على تحديد الهدف والمعنى من الحياة بمقاييس مستقلة عن مقاييس جيل الكبار من الآباء والأجداد.

5- الظروف البيئية الحديثة عامل رئيسي يساعد على بروز الحركات الاجتماعية للشباب وثقافتهم الفرعية، حيث أوجدت الإطار البيئي الملائم لتدعيم التفاعل بينهم وتسهيل الاتصال بينهم.

6- ثقافة الشباب في المجتمع المعاصر تعني فئة اجتماعية متميزة، ولم تعد تعني مرحلة محددة اجتماعياً من مراحل دورة حياة الفرد بحيث أن الذين ينتمون إلى هذه الفئة لهم سماتهم الخاصة والتي تظهر في كافة مجالات التعبير عن الذات، كما يشارك أعضاء هذه الفئة جملة من القيم والمعايير والسلوك.

7- يعتقد الشباب أن تتبنى ثقافتهم له هدف هو خلق أسلوب عصري للحياة يحل بديلاً للأساليب التقليدية السائدة، كما يشتمل على كثير من المعايير والمثاليات التي تشبع حاجات ومصالح كافة أفراد المجتمع.

8- يمكن اعتبار بروز حركات تحرير المرأة والدعوة إلى مزيد من الحقوق لها، هو من نتائج ثورة الشباب وثقافتهم، فقد عملت ثقافة الشباب على تهيئة المناخ والإطار الإيديولوجي والخبرة الملائمة لتنظيم مثل هذه الحركات.

9- استجابة للمؤثرات التي أحدثتها ثورة الشباب وثقافتهم المضادة، فإننا بحاجة إلى قيم جديدة، واجتماع ثقافي جديد يتسق مع النظام التكنولوجي السائد، في ظل التعاون بدلا من الصراع، وإحلال الجماعية بدل الفردانية، والاستقلال بدلاً من التبعية.

التصورات السوسولوجية لثقافة الشباب:

اهتمت البحوث السوسولوجية منذ أواخر عام 1920 بدراسة الشباب بوصفهم يعبرون عن إحدى المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الحضري، بالتوازي مع دراسات في علم نفس النمو، حيث نجد عالم النفس الانجليزي "سيرل بيرت **Cyril Burt**" قام بتطبيق تصور دوركايم عن الانحراف بوصفه ظاهرة طبيعية، إلا أنه يرجع إلى مجموعة من الأسباب والعوامل من بينها التفاعل القائم بين العوامل الوراثية والمؤثرات البيئية، ويعتقد سيرل بيرت أنه بينما أكدت البحوث أن الفقر يعد عاملاً هاماً من عوامل الانحراف، فإن اهتمام هذه البحوث قد اتجه نحو ناحية واحدة من نواحي الفقر وهي الناحية المادية مهملة الفقر العاطفي أو الأخلاقي وخاصة في نطاق الحياة الأسرية.

وبالمثل بحثت الأنثروبولوجية "مرجريت ميد **Margeret Mead**" عن تفسير ظواهر المراهقة واكتشفت أن المشكلات الحادة المرتبطة بهذه المرحلة العمرية هي من إنتاج الحضارة الغربية.

واتجهت أعمال مدرسة شيكاغو نحو تطوير الدراسات الاثنوغرافية عن العلاقة بين الجوار وأساليب الحياة والشباب، وذلك انطلاقاً من التغيرات المادية والثقافية التي صاحبت المجتمع الصناعي الحديث والتي انعكست آثارها على مختلف ظواهر الحياة الاجتماعية والنفسية. والواقع أنه منذ عام 1930 اتجهت جهود علماء الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة مدرسة الإيكولوجيا الاجتماعية والحضرية بشيكاغو إلى دراسة ملامح أساليب الحياة الحضرية وطورت هذه الدراسة أدوات تصويرية ومنهجية يمكن الاستفادة منها في وصف وتفسير أساليب الحياة الحضرية.

ولقد أشار "ميتزا Matza" إلى أنه بالرغم من فائدة مفاهيم هذه المدرسة، إلا أنها تعاني من بعض نقاط الضعف، فهي وإن كانت على وعي بالتنوع الاجتماعي، الأمر الذي دفعها إلى تبني مفهوم الباثولوجيا الاجتماعي أو التفكك الاجتماعي المؤقت لوصف وتفسير المشكلات البنائية والوظيفية التي تظهر في الأنساق الاجتماعية الحضرية، ويمكن استخدام بعض تحليلات هذه المدرسة وبخاصة ما تعلق منها بانعدام التوازن بين الصراع والتعاون في المجتمع الحضري، وما ترتب عليه من تفكك الأنماط الثقافية والاجتماعية، واختفاء التضامن الاجتماعي وانهيار الضوابط الاجتماعية وليس من شك أن هذه الظواهر مرتبطة بالنمو الحضري والعمراني من جهة وسلوكيات المراهقين والشباب من جهة أخرى، ونستطيع أن نرجع العديد من أنماط السلوك المنحرف التي يمارسها الشباب في بعض المدن عندنا إلى هذه الظواهر وبخاصة في المدن الكبرى التي شهدت موجات من الهجرة إليها مما عمل على تقسيم التكوين الإيكولوجي للمدينة إلى مناطق تعكس تنظيماً اجتماعياً متبايناً، ومن ثم ظهرت المناطق المتخلفة والأطراف الحضرية التي شجعت على تطوير معايير ثقافية وأنماط سلوكية خاصة بها أصبحت مصدراً للانحراف والجريمة، وارتفاع معدلات الانحراف يرجع في جانب منه إلى الصراعات القائمة بين قيم متعارضة وضعف الضوابط الاجتماعية والأسرية إلى الحد الذي يجعلها عاجزة عن التعامل مع هذه الأوضاع والظواهر السلوكية.

ومن المفهومات الأخرى التي استخدمت في هذا المجال مفهوم دوركايم عن الأنومي **Anomie** أو اللامعيارية ويقصد بذلك أن حالة فقدان المعايير تنشأ عندما يشهد النظام الاجتماعي العام ضرباً من التفكك والانحلال، إذ يلاحظ أن طموحات الناس وتطلعاتهم لم يعد من الممكن إخضاعها لمتطلبات النظام الاجتماعي الجمعي، ومن ثم تصبح تطلعات جامعة يتعذر تحقيقها في معظم الأحيان، فالمصدر الأساسي لحالة فقدان المعايير هو ذلك التوتر القائم بين السلطة الأخلاقية المجتمعية (تلك التي يفرضها الضمير الجمعي) وبين المصالح الفردية وهكذا يفشل الضمير الجمعي في ضبط ومراقبة المصالح والمطامح الفردية، فتولد حالة فقدان المعايير.

وثمة تفسير ثقافي هام في هذا الصدد مؤداه، أن حالة اللامعيارية ترتبط أيضاً بفقدان الصلة بين الوسائل والغايات، فعندما تصبح ثقافة ما غير ملائمة لحل مشكلات جماعة معينة، فإن عناصر ثقافية أو أساليب معيارية جديدة تأخذ في الظهور وتناقلها الأجيال من شأنها في ذلك شأن العناصر الثقافية الأخرى وهي من خلال ذلك تخدم المتطلبات التي تفرضها المواقف الجديدة، فحينما يجد الشباب أن التعليم الجامعي الذي حصل عليه لا يؤهله لتحقيق أغراضه وإشباع حاجاته من خلال العمل المناسب وحينما يستشعر في الوقت ذاته انعدام القدرة على التصرف إزاء المشكلات اليومية للحياة، فإنهم يسعون إلى الاندماج في ثقافات فرعية خاصة تساعدهم في حل هذه المشكلات، مع العلم أن التعليم يمثل متغيراً أساسياً مؤثراً في اتجاهات الشباب ومواقفهم.

ولقد حاول "روبرت ميرتون **Robert Meitron**" تعديل التصور الدوركايمي لحالة الأنومي إذ صاغ المفهوم في ظل الظروف البنائية التي يعيشها المجتمع الأمريكي والتي تتصل اتصالاً وثيقاً بالتصنيع، ذلك أن بنية هذا المجتمع تفرز أنواعاً مختلفة من الضغوط والتوترات منشأها تباين إمكانيات أعضاء المجتمع في الحصول على فرص الحياة وخطورة هذه الضغوط

تتمثل فيما يترتب عليها من نتائج مرضية تنعكس على الشخصية وتتجسد في أنماط سلوكية مضافة للمجتمع أو حتى في أنشطة ثورية.

من جانب آخر نجد أن النظريات البنائية الوظيفية تلجأ إلى تفسير هذه المرحلة على أنها حقبة مستقلة بحيث أن الجماعات الشبابية التي تشهدها هذه الحقبة تكون عادة نتاجاً لظروف التفكك الاجتماعي وهي بدورها تسعى إلى أداء وظيفة تكاملية، لأنها تهيب الشباب لإعادة الدخول إلى المجتمع، فهي إذا لا تسعى إلى تغيير المجتمع وإنما تستهدف تحقيق التوافق الاجتماعي لجماعات عمرية معينة، وهكذا فسر "تالكوت بارسونز **T. Parsons**" ثقافة الشباب على أنها محاولة لتحقيق التكيف مع توقعات الكبار، على حين ذهب كارل مانهايم إلى أن مفهوم "وحدة الجيل" قادر على توضيح مغزى هذه الثقافة، فداخل جيل الشباب توجد جماعات معينة تستطيع أن تطور مقومات الخبرة المشتركة بطرق مختلفة، معنى هذا أن ثمة فئة معينة أكثر من غيرها تتوافر لديها المقدرة على صياغة الاهتمامات والمصالح الرئيسية للجيل الذي تنتمي إليه، وتبدو هذه الخبرة الجماعية أشد عمقا خلال التغير الاجتماعي السريع، ذلك أن أهم ما ينشأ عن التغير الاجتماعي السريع هو ما نطلق عليه "فجوة الأجيال" إذ كلما زادت معدلات سرعة التغير اتسع نطاق هذه الفجوة، واستجابة الشباب تكون غالباً ذات خصائص إيجابية ومبدعة.